الإعجاز البياني في القرآن الكريم

سورة الطـــارق

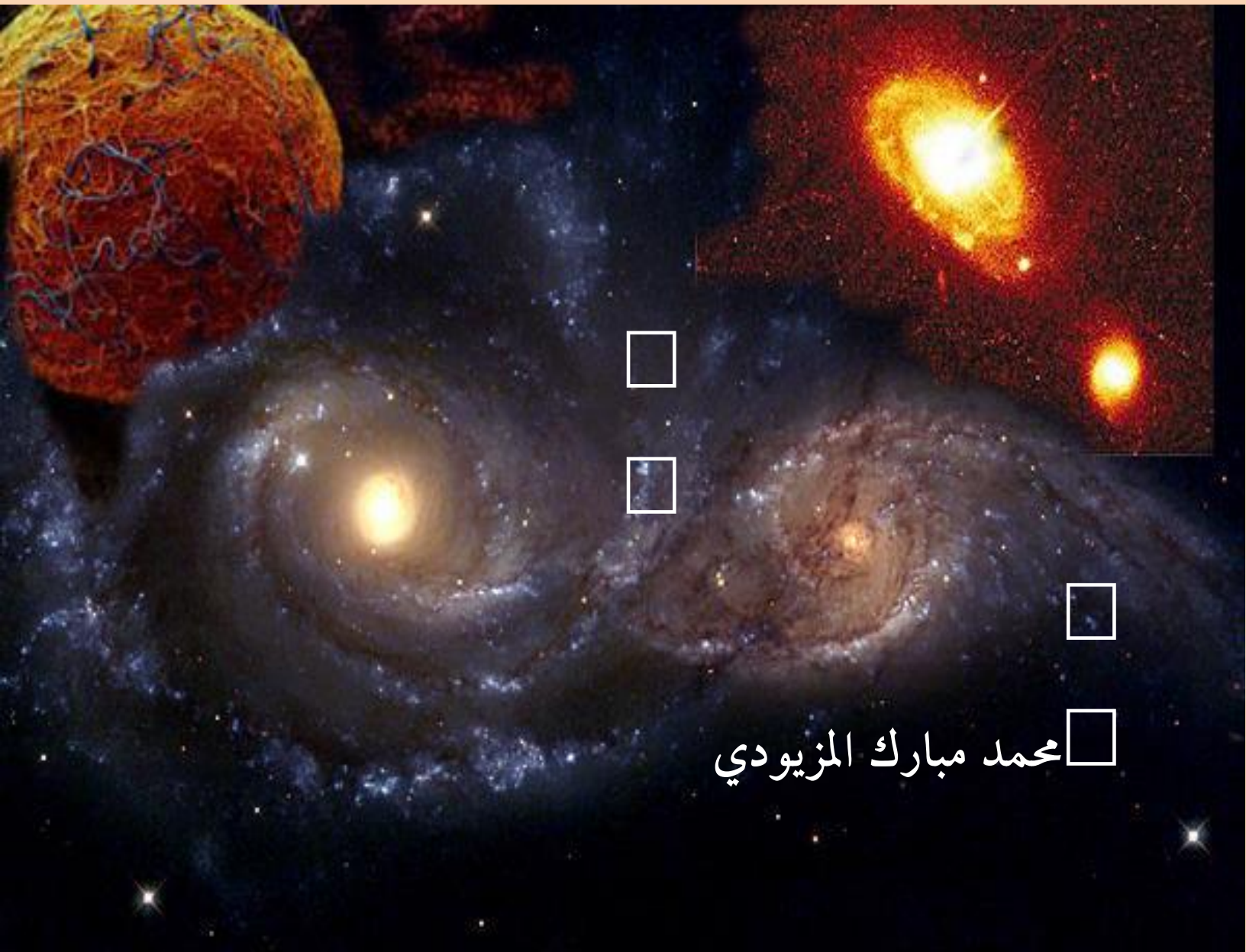

محمد مبارك المزيودي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾
إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ
مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ
لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾
وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ
﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾
فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾ ﴾ الطارق: ١ – ١٧

سورة الطارق

مكية ، وهي سبع عشرة آية

مقاطع السورة

1- القسم على حفظ الإنسان

﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ﴿٤﴾ ﴾

الطارق: ١ – ٤

2- الدليل على حفظ الإنسان

﴿ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ﴿٦﴾ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ﴿٨﴾ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ﴿١٠﴾ ﴾ الطارق: ٥ - ١٠

3- القسم على صدق ذلك الخبر

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ﴿١١﴾ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ﴿١٤﴾ ﴾ الطارق: ١١ - ١٤

4- تهديد المكذبين

﴿ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ﴿١٧﴾ ﴾ الطارق: ١٥ – ١٧

التقسيم المذكورين يبين دوران السورة حول محور واحد ، وهو قوله تعالى { أن كل نفس لما عليها حافظ } وهذا المحور ماهو إلا حقيقة من جملة حقائق القرآن الذي كذب به الكافرون، ولذلك تم الالتفات في المقطع الثالث من الخاص، وهي الحقيقة المذكورة قبل قليل إلى العام فهو القرآن : { إنه لقول فصل وماهو بالهزل} .

التفسير والبيان

1- القسم على حفظ الإنسان

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ۝٤﴾

الطارق: ١ – ٤

{ والسماء والطارق }

لم يختلف القول في معنى السماء، أما الطارق فقد ذُكرت فيه أقوال عديدة بدون الخروج عن دلالتة على النجم، فما دلالة الطارق ؟ وماوجه تناسب هذه الدلالة مع النجم ؟ ومامدى سريان هذه الدلالة على النجوم ؟

1- دلالة { الطـــــــــــارق } .

الطرق في اللغة هو الدق ومنه سُميت المطرقة، وقد شاع استخدامها فيمن يقدم على أهله أو على غيرهم ليلاً، فسُمي قاصد الليل طارقاً لاحتياجه في الوصول إلى الدق. وقد اعتُمد على هذين المعنين في بيان { الطارق } فكان للسابقين تأويل وللمعاصرين تأويل، أما تأويل السابقين فهو أن الطارق هو كل نجم في السماء يظهر للعيان، ووصف بذلك لأنه يظهر ليلاً. أما المعاصرون فاجتهدوا من خلال الكشوفات الفلكية، فقالوا إنها نجوم موجودة في الامتداد الكوني، تصدر أصواتاً متتابعة تشبه صوت الطرق المتتابع.

2- الدرس والتحليل

❖ من حيث الدلالة الأشهر لكلمة الطارق في لغة العرب، فإن كل نجم يظهر في صفحة السماء هو طارق، وذلك لأنه يظهر لعين الإنسان ليلاً □

□

❖ ولكن الآيات قصرت وصف النجم بأنه طارق حال كونه ثاقباً، أي أنه إن لم يكن ثاقباً لم يصح وصفه بأنه طارق . فما معنى كون النجم ثاقباً ؟ □

قال تعالى

﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ ﴾ الصافات: ١٠

وذلك أن الشياطين مُنعوا من استراق السمع لما يدور في الملأ الأعلى فأصبح أحدهم إذا أراد أ، يسرق خبراً تلقفه بسمعه وأسرع هارباً به، فيسلط الله عليه شهاباً ثاقباً يدركه فيحرقه، وهو مانشهده في بعض الليالي، إذ ينطلق شهاب كأنه القذيفة. أما وصفه بأنه ثاقب فقد أُوِّل بأنه المضيء ومن ذلك قولهم : أثقب نارك، أي أجعلها أكثر إضاءة. ولكن هذا المعنى ليس هو المعنى العجمي للكلمة، إنما هو النتيجة المترتبة على المعنى العجمي فالثقب هو الخرق، وعلى ذلك فإن الضوء المنبعث من النار يخترق المدى المحيط بها على قدر اشتعالها، فإذا أمدها صاحبها بالوقود ازدادت اشتعالاً، وبالتالي ازدادت نسبة إضاءتها، فاتسع المدى الذي يخترقه الضوء، ليصبح أكثر امتدادا

إلا أن الثقب يحمل خصوصية في الدلالة لاتحملها كلمة : الخرق، وذلك أن الخرق لايحمل دلالة القوة في الفعل ، أما الثقب فهو خرق بقوة ثم هو يحمل دلالة استقامة الخرق، أي أنه خرق يمضي في خط مستقيم متساوي الأبعاد

والشهاب الثاقب الذي يرسله الله على الشياطين له فلك يسبح فيه وقد لايكون مرئياً للعين الباصرة، فإذا سلطه الله على الشياطين انطلق انطلاق القذيفة، أي بسرعة عالية، فتولد عن احتكاكه بالفضاء الكوني مزيد اشتعال له، لأن الاحتكاك يولد حرارة ، فإذا كانت الكتلة كبيرة والاحتكاك عالياً ولّد ذلك اشتعالاً، ومن يلاحظ تلك الشهب في السماء يلاحظ أنها تخلف وراءها خطاً مُضِيئاً سرعان مايختفي، هذا الخط هو مايفقده الشهاب من كتلته بسبب احتكاكه الشديد بالفضاء ووجه وصفه بالثاقب أنه يثقب الفضاء الكوني ثقباً وبقوة عظيمة.

❖ أما الطارق فهو ليس شهاباً كتلك الشهب التي رصدها الله للشياطين بل هي نجوم لاتغادر مواقعها من السماء، وهي نجوم ثاقبة بالمعنيين المذكورين قبل قليل، الإضاءة الشديدة، ومايترتب على ذلك من ثقب، واجلاء المعنى كان لزاماً تفضيل أركان الصورة، وذلك فيما يلي:□

النجوم في السماء أجرام ملتهبة ، تحدث في كتلتها انفجارات نووية متتابعة، وبسبب هذه الانفجارات يصدر عنها الضوء، ولهذا المعنى وصف الله الشمس بأنها سراج، والشمس ماهي إلا نجم من النجوم. ولكن فعالية النجم لاتقف عند حدّ الإضاءة، لأن تلك الانفجارات النووية يتولد عنها انبعاث مغناطيسي وجاذبية عالية، وسأدرس فيما يلي طبيعة نجمنا الخاص { الشمس } ثم أسقط مايتبين لي من فعالياته على { النجم الثاقب } :

❖ الشمس نجم تدور من حوله تسعة كواكب ، من بينها كوكب الأرض الذي يعيش فيه الإنسان ، وكل كوكب من تلك الكواكب له فلك خاص حول الشمس، لاينحرف عنه قيد أنملة، فما الذي يمنع هذه الكواكب من أن تبتعد عن الشمس أو أن تتهاوى عليها ؟□

إنه التناسب الدقيق في قوى التجاذب المغناطيسي بين الشمس وبين تلك الكواكب، وقد مرّ معنا في سورة { التكوير } أن تناقص الانفجاراتالنووية في الشمس سيفضي إلى اختلال نظام التوازن في الأرض ، بل إن الكواكب المرتبطة بنجم كنجمنا ستتهاوى في الفراغ الكوني وهو قوله تعالى:

﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢﴾ الانفطار: ٢

فالشمس على ذلك نجم ثاقب، يثقب ضوؤه ذلك الفراغ الكائن بينها وبين الأرض والذي يبلغ { 93 } مليون ، وكذلك كل نجم يصل ضوؤه إلى بصر الإنسان هو نجم ثاقب، ثقب ضوؤه ذلك الفراغ الشاسع بينه وبين الأرض. وإذا تجاوزنا حد مايبصره الإنسان فإن

كل نجم هو أيضاً نجم ثاقب، لأنه مشتمل على الوقود النووي الذي يجعله مضيئاً، وليس شرطاً أن يراه الإنسان .

❖ ولكن البناء اللغوي والدلالي يوحي بأن الطارق { النجم الثاقب } إنما هي نجوم مخصوصة أقسم الله بجنسها { والطارق } لتميزها عن بقية النجوم ، فإلى أين تذهب دلالة النجم الثاقب ؟□

بيان ذلك يستدعي الذهاب إلى مدى أبعد من المجموعة الشمسية، وهو مدى المجّرة:

إن شمسنا هذه ماهي إلا نجم صغير في مجرة تعرف درب التبانة، وهي مجرة تشمل على ملايين النجوم، وكل نجم له موقع مخصوص في البناء الحلزوني للمجرة، وشمسنا هذه في الطرف الأقصى من هذا الشكل الحلزوني. فما الذي يحفظ الملايين من النجوم في مواقعها الفكلية لتبقى على تلك الصورة الحلزونية ؟ إنه ذات مايحفظ كواكب المجموعة الشمسية في مواقعها من الشمس، فقد ذكر الفلكيون أنها- أي نجوم المجرة- تدور حول قلب المجرة، وهذه المجرة تشترك مع مجرات أخرى في الدوران حول مجرة أم مثلما هي الكواكب حول الشمس، وبما أن الله تعالى وصف السماء بإحكام البناء { والسماء ذات الحُّبك } الذاريات7 فإن الأمر يستلزم نظاماً تتماسك به كل المجموعات المجرية. وهذا التماسك – على المستويين الجزئي والكلي – ليس له أن يتحقق إلآ من خلال التوازن التام بين قوى الجاذبية بين نجوم المجرة الواحدة من جهة وبين نجوم المجموعة المجرية من جهة أخرى وبين المجموعات المجرية من جهة ثالثة، وهذا يستلزم وجود نجوم على مستوى المجرة الواحدة ذات مواصفات خاصة وذات جاذبية عالية، تحقق الاستقرار لبقية النجوم من جهة، وترتبط بأمثال لها في المجموعة المجرية وفي المجاميع المجاورة، أي أن جاذبيتها وأي واسعاً، لاترقى إليه النجوم الأخرى، وبالنظر إلى أن الفضاء يزخر بالمجالات الكهرومغناطيسية فإن قدرة { النجم الثاقب } على الامتداد تتغلب على تلك المجالات فتثقبها، وكأنها بذلك أعمدة ترابط أجرام السماء.

ومؤشرنا في تلك الدلالة تكرار ذكر السماء مع مايشير إلى نظام بنائها قال تعالى { والسماء ذات البروج } البروج1 وقد بينا هناك أن تلك البروج شاهد على استقرار نظام السماء والأرض وأن زوالها شاهد على زوال الحياة الدنيا. وقال تعالى{ والسماء ومابناها } الشمس 5 ، وهاهو جل شأنه يقول في هذه السورة: { والسماء والطارق} وهو مايستدعي أن يكون النجم الثاقب أساساً من أسس بناء السماء، وذلك على الوجه الذي فصلته، والأمر يتسع للمزيد من الاجتهاد.

التقوب السوداء

كل نجم في السماء قوتان قوة طرد وقوة جذب، وكل نجم يلـوح ضوؤه في كبد السماء لايصل إلينا ضوؤه إلا بسبب قوة الطرد المـركزية وخاصية الضوء على الانبعاث، فإذا كانت قوة الجذب أقوى بكثـير من قوة الطرد فـإن الضوء لن يقدر على الأفلات من النجم، ولـذلك فإن موقعه سيبدو على هيئة ثقب أسود . فما هي مهمة الثقب الأسـود ؟

إن السماء بناء متصل الأنحاء، عقد الله عقد مشابهة بينها وبين الإنسان في قوله تعالى: { أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها } النازعات 27 ، والإنسان تموت منه خلايا وتولد مكانها أخرى، ليحفظ الله تقسيمات بنائه، وكذلك السماء تموت فيها نجوم وتولد أخرى، فإذا انفجر النجم أو الكوكب فإلي أين تذهب بقاياه ؟

قوة انفجار النجم تبعد اجزاءه عن مداره، فتصبح اجزاؤه تائهة في الفضاء الكوني، ولو بقى الأمر على ماهو عليه لكثرت المخلفات، ولربما تسبب ذلك في إفساد أحوال بعض النجوم أو الكواكب، وهنا يأتي دور الثقوب السوداء، إ أنها بجاذبيتها العالية التي حبست ضوءها عن أن ينبعث منها تصل إلى تلك المخلفات قبل غيرها من النجوم ، وكأنها بذلك تشبه كريات الدم البيضاء التي تتسارع إلى التهام الجراثيم التي تغزو الجسم قبل أن تؤثر في أجزائه الحيوية.

وهذا الثقب الأسود قد تسري عليه دلالة { النجم الثاقب } وذلك بالنظر إلى تميز جاذبيته غيره من جاذبية غيره من النجوم، فالنجم يثقب الفضاء من حوله بقوتين، قوة الطرد وقوة الجذب ، فكان ارتفاع جاذبية الثقب الأسود سبباً لطول مدى الثقب لديه.

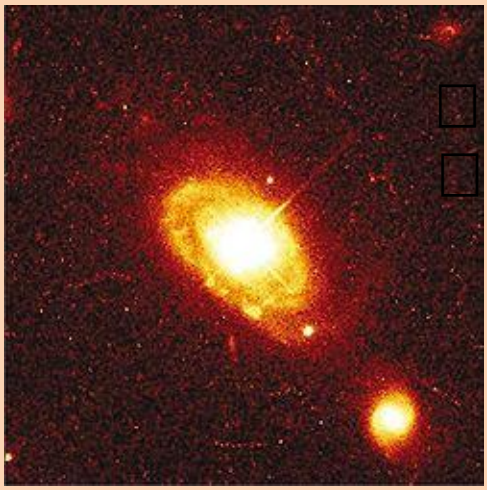

الكواسار

مع اختراع التلسكوب الراديو اكتشف العلماء أجساماً سماوية، تولد من الطاقة مايتجاوز الطاقة التي تولدها مجرة كاملة بكل مافيها من نجوم ومجموعات شمسية.ولاحظ العلماء أنها تتحرك عبر الكون بسرعة خرافية لايمكن تصديقها، تكاد تصل إلى نصف سرعةالضوء وفوق ذلك لاحظوا أن كثير من الكوارسات يلحقها تغير ملحوظ في مدى تألقها ولمعانها خلال ستة أشهر وقد احتار العلماء في تفسير هذا الجسم العملاق لايمكن أن يتعرض لتغير لمعانه وتألقه خلال مثل هذا الزمن القصير جداً، خاصة إذا عرفنا أن الضوء لكي يعبر من طرف الكواسار إلى طرفه الآخر يستغرق آلاف السنين.

وعلى هذا الكواسار تنطبق دلالة { الثاقب } بقوة :

فضوءه أبعد من ضوء أي نجم من النجوم، فالطاقة التي تنطلق منه تعادل الطاقة المنبعثة من انفجار مجرة بأكملها ، وسرعته سرعة ثاقبة، عُبر عنها في النص بلفظ سرعة خيالية، إذ تكاد تبلغ نصف سرعة الضوء:

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾ الطارق: ٢ - ٣

كل ماجاء في القرآن بلفظ { ومأدراك } ذكر الله له بياناً له، واستخدم صيغة الاستفهام له مؤشر دلالي وهو عِظم شأن { الطارق } فشأنه شأن عظيم، أدرانا الله به بقوله تعالى : { النجم الثاقب }.

﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾ الطارق: ٤

هذا هو جواب القسم، يقسم جل شأنه على أن كل نفس عليها حافظ. وقد قُرئت هذه الآية قراءتان:

1- إنْ : نافية { لما } بمعنى إلا، وهي لغة هُذيل ، والمعنى ماكل نفس إلا عليها حافظ

2- إن: مخففة من الثقيلة، ومافي { لما } زائدة للتوكيد، والمعنى إن كل نفس لعليها حافظ.

فتضافرت على تأكيد هذه الحقيقة مؤكدات عديدة، ففي القراءة استخدام أسلوب الحصر: { إن + لما { بمعنى إلا } وفي القراءة الثانية: إن المخففة من الثقيلة + لام التوكيد + زيادة قوله { لما } بتخفيف الميم لا بتضعيفها.

قوله تعالى: { إن كل نفس لما عليها حافظ } هو الحقيقة التي ألقاها الله للعباد، واختار السماء والطارق بين سائر خلقه ليقسم به على تلك الحقيقة، وقد أسلافنا، رحمهم الله، حفظ الإنسان إلى ماوجدوه نصاً في القرآن، فردوا دلالة الحفظ إلى الله، أو إلى الملائكة، واستندوا في ذلك قوله تعالى

﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗا ﴾يوسف: ٦٤

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ ﴾الرعد: ١١

وهو مرجع صحيح بالنظر إلى أن الله لايغفل شيئاً من خلقه، وإلى أنه سبحانه أيضاً له خلق يُدعون الملائكة يفعلون مايأمرهم به من حفظ الإنسان...

وفي دلالة حفظ الإنسان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم

﴿ ...وأعلم أن الأمة لو أجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك غلا بشيء قد كتبه الله عليك .﴾رواه أحمد والترمذي والحاكم .

ولكن حفظ الله للعبد لايقف عند جُهد الملائكة، لأ،ه سبحانه قدر من الأسباب في الأرض مايحقق ذلك الحفظ ، وفي هذا يأتي قوله تعالى:

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾المدثر: ٣١

وسوف ندور في فلك هذا المعنى في العنوان التالي:

العلاقة بين ركني القسم

كنت قد اخترت فيما سبق من سور جزء عم وجوب وجود صلة ما بين ركني القسم، ومستندي في ذلك ان الله عز وجل لم يختر السماء والطارق من جملة خلقه الذي لايعد ولايُحصى اختياراً عشوائياً لاغاية من ورائه، بل هو اختيار مقصود، فيه إشارة إلى صلة مابين المقسم به والمقسم عليه، فما هو وجه الصلة بينهما في هذه السورة ؟

كنت قد غضضت الطرف في سورة { البروج }عن علاقة البروج في السماء بأحوال الإنسان، وذلك بسبب قول رسول الله صلى الله عليه وسلم

﴿ كذب المنجمون ولو صدقوا ﴾

وما يترتب على علم النجوم من ترك للتوكل على الله، ورد مايرجوه المرء من خير ومايخشاه من أذى إلى أحوال النجوم ولذلك لم أتعرض لهذا المعنى في سورة البروج، وعندما أتيت إلى سورة الطارق وجدت النسق ذاته في بدايتها أيقنت أنه لابد من تدبر ذلك النسق برعم مافيه من محذروات ومحظورات، وفيما يلي خطوات ذلك التدبر:

الارتباط الأول

قرن الله عز وجل بين تكوين السماء وتكوين الإنسان خلقاً وخُلقاً وفي مواضيع عديدة من كتابه الكـــــــــــريم.

❖ أقسم بقوله : { والسماء والطارق } على { إن كل نفس لما عليها حافظ } □

❖ وأقسم بقوله: { والسماء ذات البروج } على مايكون بين المؤمنين والكافرين من تدافع { قُتل أصحاب الأخدود } وماتلاها من آيات□

❖ وأقسم بقوله { والسماء ذات الحُبك } على مايكون بين الناس من اختلاف في حقيقة البعث: { إنكم لفي قول مختلف } □

❖ وأقسم بقوله : { والسماء ومابناها } على قوله { قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها } وكل وإنسان ماهو إلا أحد هذين { زكاها ، دساها } .□

فالشواهد السابقة تربط بين بناء السماء وبين بناء الإنسان، وقد عقد جل شأنه بين البنائين في قوله تعالى

﴿ ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ ﴾ النازعات: ٢٧

﴿ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ غافر: ٥٧

وأقرب ماقد يُقال في الغاية من عقد المقارنة هذا أن السموات جميعاً لناء متجانس ومرتبط الأجزاء مثلما هو الارتباط بين أجزاء الإنسان بحيث أنه لو اشتكى منه جزء تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

الأرتباط الثاني □

تبين لأصحاب النظر أن القمر هو السبب في حصول ظاهرتي المد والجزر في البحار، فهل نجد للقمر تأثيراً على الإنسان .؟

دم الإنسان سائل يدور في جسده، وفي أصول الطب العربي أصل يُعرف باسم الحجامة، وهو استخراج، لبعض الدم علاجاً لعله من العلل، وقد ذكر ابن القيم أن الأطباء أجمعوا

على أن الحجامه في النصف الثاني من الشهر القمري ومايليه من الربع الثالث من أرباعه أنفع من أوله وآخره، وقد ذكر في ذلك أحاديث مرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم تذكر الأيام سبع عشرة وتسع عشرة وإحدى عشرين، إلا أنها ضعيفة، ولكن صعفها لم يتعارض مع ماأجمع عليه الأطباء...

إذن فالقمر الذي يؤثر على ماء البحر مداً وجزراً يصل تأثيره إلى دم الإنسان، هذا في حدود مايدركه الإنسان بحواسه، فهل تكون الشمس وهي أقرب نجم إلينا خالية من التأثير على الإنسان، وهي النجم الذي تحيا بتأثيره كل الكائنات الحية ؟ !

لقد تحدث العماء عن التأثير المغناطيسي للشمس على بعض القدرات والإبداعات البشرية، وتحدثوا عن تأثير العواصف الشمسية على الإنسان، وغير ذلك مما يقطع بتأثير هذا النجم على طبائع الإنسان .

فإذا جئنا إلى { البروج } وجدنا أن الناس جميعاً مرتبطون بها، وذلك بحسب مواليدهم، وقد ذُكر أن كل برج يتميز أصحابه بجملة من السمات الخُلقية يتميز بها عن غيره من ذوي الأبراج الأخرى، وكل تلك السمات مُدرج في قوله تعالى { فألهما فجورها وتقواها }

وكل برج من هذه الأبراج مُكون من عدد من النجوم تأخذ شكلاً معيناً يعطيها تلك الأسماء المتداولة بين الناس وعلى افتراض صحة هذا الكلام فإن كل نجم من تلك النجوم المكونة لتلك الأبراج هو نجم ثاقب، تثقب فعاليته ذلك المدى الواسع بينه وبين الأرض، بل إنه يمتد ليخترق جسد الإنسان، فيجعله ذا طابع مخصوص تميزه عن غيره من أصحاب الأبراج الأخرى.

وهذه النجوم المكونة لأبراج السماء، كل منها هو نجم طارق، فمن حيث دلالة الطارق على من يقبل من جوف الظلام، فإ، النجوم غارقة في الظلام الكوني ومن حيث دلالتها

على الطرق فإنها يجب أن تكون حاملة لهذه الدلالة،لأن الكلمة في القرآن كلمة قد ترد أيضاً في معرض دلالة الطرق قد تمضي أيضاً على مايشبه نظام الطرق ، حدوثاً وانقطاعاً كأن يكون موجات متتالية أو رنيناً ذا ترددات متتابعة .□

أما بعد :

فإن ماسبق عرضه إن هو إلا محاولة لفهم دلالة { الطارق. النجم الثاقب } وفهم الصلة بينه وبين وقوله تعالى: { إن كل نفس لما عليها حافظ } فإن أصبت فبتوفيق من الله، وإن أخطأت فبما جُبل عليه الإنسان من جهل وخطأ وقصور.

وقد بقى اجتهاد آخر في بيان معنى الطارق سأعرض له لاحقاً، مع بيان مايوافقه في بعض ماذكرناه من دلالة النجم الثاقب.

2- الدليل على حفظ الإنسان

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠ ﴾ الطارق: ٥ - ١٠

بعد أن أقسم جل شأنه بالسماء والطارق على حقيقة غيبية، دُعي الناس إلى الإيمان بها، وهي { إن كل لما عليها حافظ } دعاهم الله إلى النظر في شاهدٍ يدل على هذه الحقيقة ، وهو هذه الآيات المذكورة في هذا المقطع.

وهنا يجب أن يلف النظر إلى أن التناسب البياني والدلالي في السورة يستدعي أن يكون هذا الشاهد المذكور في هذه الآيات ذا صلة بدلالة حفظ كل إنسان ومن ورائها دلالة السماء والطارق ، ولتوثيق هذا الوجه نذكر له نظير، وهو قوله تعالى:

﴿ قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ١٧ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ١٨ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ٢٢ كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ٢٣ ﴾عبس: ١٧ - ٢٣

تذكر الآيات خلق الإنسان ابتداء من نطفة، ونشره يوم القيامة من عجب الذنب الذي هو في حجم حبة الخردل، ولكي يؤمن الإنسان بهذه الحقيقة دُعي إلى النظر في شاهد يثبت له هذه الحقيقة، فقال مباشرة بعد تلك الآيات:

﴿ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ٢٤ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ٢٥ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ٢٦ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ٣١ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٢ ﴾عبس: ٢٤ - ٣٢

فكما تنبت الحبة من الأرض ينبت الإنسان من النطفة ابتداءُ ومن عجب الذنب يوم القيامة . وبهذا المثال يُثبت لنا حتمية الارتباط بين السماء والطارق وبين { إن كل نفسٍ لما عليها حافظ } وبين ماجعا الله الإنسان إلى النظر إليه .

﴿ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ٥ ﴾الطارق: ٥

{ فلينظر } الفاء رابطة ، أي مترتبة على كلام سابق ، وذلك أن رسول الله دعا الكُفار إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، وأعلمهم أنهم مخلوقون، وأنهم بعد موتهم مبعوثون، فأنكر الكافرون ذلك، فذكر الله لهم هذا دليل، فكان اقترانه بالفاء دالاً على ماسبق ذكره.

اللام في قوله { فلينظر } لام الأمر، أفادت أن الله يأمر الإنسان أن ينظر في أصل خلقه، ليعلم أن هناك حافظاً يتعاهد خلقه. والفعل ينظر إذا كان مقيداً بنظر العين تعّدي بالحروف { إلى } ومن ذلك قوله تعالى

﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾محمد: ٢٠

﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾الأعراف: ١٤٣

فإذا تجاوز الأمر حد نظر العين لم يُذكر حرف الجر ، لأن المراد هو تدبر ماوراء الشيء المنظور إليه، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾محمد:

وعلى هذا الوجه جاء الفعل في آية الطارق، وقد تعدى إلى المفعول به للدلالة على أن المراد هو التدبر والتأمل . ولأن النظر الذي هو بمعنى التدبر يبني على ماتنظر إليه العين قدّم الله شاهداً تشهده العين، وهو ماذكره جل شأنه بقوله { ماء دافق } أما المفعول به فهو جملة الاستفهام { مم خلق } والمراد جواب هذا الاستفهام .

{ مم } {من – ما } أدغمت النون في الميم وحذفت الألف من اسم الاستفهام { ما }

﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾﴾الطارق: ٦

في آيات النظر في ملكوت الله لايقتصر العليم الحكيم على دعوة الإنسان إلى التدبر والتأمل، بل يقدم به مع هذه الدعوة شريحة علمية ليقوم الإنسان بوضعها تحت مجهر التدبر والتأمل، وهاهو جل شأنه يقدم له شريحة النظر في أصل خلق الإنسان { ماء دافق } وهو ماء الرجل وماء المرأة ، لجواب رسول الله صلى الله عليه وسلم على اليهودي الذي سأله : محمد ، مم يُخلق الإنسان ؟

﴿ يايهودي من كل يُخلق، من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة... ﴾ رواه أحمد
وقد وصف ماء كل منهما بأنه دافق ، أي أنه يندفع بقوة ،ولايسيل سيلاً.

﴿ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ ﴾ الطارق: ٧

❖ وصف الماء بأنه { دافق } وفي اللغة العربية قاعدة تقول : الجمل بعد المعارف أحوال وبعد النكرات صفات، وكلمة { ماء } نكرة ، ولهذا فإن جملة { يخرج } في محل جر صفة ثانية لكلمة { ماء } وبين هاتين الصفتين كان هناك فصل ووصل وتفاوت.

أما الوصل فهو في تبعية الصفة الموصوف حتى وإن تعددت الصفات أضف إلى ذلك عدم الفصل بين الصفتين الأولى والثانية بحرف من حروف العطف وفي هذا الوصل إشارة إلى تلازم هاتين الصفتين في ذلك الماء، فهو أبداً دافق، وهو أبداً يخرج من بين الصلب والترائب

أما الفصل فهو ذلك الفاصل الرقمي الذي فصل بين الصفتين، فالصفة الأولى { دافق } اسم فاعل، والاسم يفيد الثبات، فهو غير خاضع للتغير والتبدل، أما الصفة الثانية فجاءت جملة فعلية ، والفعل لايفيد الثبات مثلما هو الاسم، إنما يفيد التجديد، وهو أن يحدث الأمر مرة ويتوقف أخرى أي أنه خاضع للتغير.

أما التفاوت فهو في أن الماء الذي يكون من المرأة له سمة خروج من بين الصلب والترآئب يحمل قدراً من الاختلاف عن خروج ماء الرجل، وهو ماسأعرض له بالتفصيل فيما يلي:

❖ { من بين الصلب والترائب }

الصلب هو الظهر، والترائب هي عظام الصدر، فمن بين العظمين يخرج الماء، وقد تردد لدى المفسرين قديماً القول بأن الصلب للرجل وأن الترائب للمرأة، مع أن الآية ذكرت

ماءً واحداً، ولم تذكر مائين، ومن الثابت في نص الشريعة أن الماء الواحد الذي يخلق منه الإنسان هو الماء المختلط من ماء الرجل وماء المرأة ، وهي النطفة الأمشاج.

وقد نظر بعض المفسرين إلى توحد دلالة الماء في الآية فردّ ذلك إلى اتحاد ماء الرجل وماء المرأة في ماء واحد، وذلك في رحم المرأة ، وهذا مبلغهم من النظر في خلق الإنسان ، وذلك للمستوى الذي كانت عليه أدوات البحث العلمي، أما في هذا الزمان، فقد قفز العلم قفزات واسعة، فكان لزاماً أن نذكر ماتوصل إليه العلماء في جزئية الصلب والترائب، لمساهمتة في فهم الآية:

يقول الدكتور محمد على البار:

إن الخصية والمبيض يتكونان من الخلية التناسلية بين صلب الجنين وترائبه.وتتكون الخصية والمبيض في هذه المنطقة تحديداً { بين الصلب والترائب } ثم تنزل الخصية تدريجياً حتى تصل إلى كيس الصفن { خارج الجسم } في أواخر الشهر السابع من الحمل، بينما ينزل المبيض إلى حوض المرأة، ولاينزل اسفل من ذلك

ومع ذلك فإن تغذية الخصية والمبيض بالدماء والأعصاب واللمف تبقى من حيث أصلها، أي من بين الصلب والترائب ، فشريان الخصية أو المبيض يأتي من الشريان الأبهر من بين الصلب والترائب كما أن الأعصاب المغذية للخصية والمبيض تأتي من المجموعة العصبية، الموجودة تحت المعدة من بين الصلب والترائب ...

فالحيوانات المنوية لدى الرجل وكذلك بويضة المرأة يستقيان مواد تكوينها من بين الصلب والترائب، كما أن منشأها ومبدأهما أيضاً من بين الصلب والترائب

عندما قال تعالى : { إن كل نفس... } لم ينظر إلى ذكورة وأنوثه، لأنه أراد بذلك كل إنسان ذكراً كان أم أنثى، وعندما ذكر منشأ الماء الدافق لدى الذكر والأنثى نظر إلى الأصل المشترك بينهما وهو { من بين الصلب والترائب } فالماء لدى الرجل والمرأة ماء واحد إذا

نظرنا فيه إلى أصل تكوينه . وأمام هذه الحقيقة يعرض لنا سؤالان ، الإجابة عليها من جملة دلالات الآيات ، ولكن ليس بلفظ مباشر، إنما من خلال ضم القرائن إلى بعضها البعض:

السؤال الأول: ماعلاقة حقيقة { من بين الصلب والترائب } بقوله تعالى { إن كل نفسٍ لما عليها حافظ } ؟

الخطوة الأولى: يخلق الله الإنسان من أم وأب ، وهذا الخلق قائم على نطفتين، نطفة الرجل { الحيوان المنوي } ونطفة المرأة { البويضة } وكل منهما يشتمل على ست وأربعين (46) كروسوماً { اختصار لكروموسوم } ليكون المجموع بذلك اثنين وتسعين (92) كروسوماً، ولكن الإنسان، أيّ إنسان لايتم بناؤه إلا من ست وأربعين فقط ، ولذلك نجد عند اندماج النطفتين يتم الاختيار من جملة كروسومات الرجل والمرأة مايستوفي ذلك العدد ، وماسوى ذلك يتم نبذه.

وتنتظم الكروسومات لدى الرجل والمرأة على هيئة أزواج ، فهي ثلاثة وعشرون زوجاً، وتفترق الأزواج لدى الرجل عنها لدى المرأة في الكروسوم الجنسي ، فالزوج لدى المرأة مؤنث ، ولدى الرجل أحداهما مذكر والآخر مؤنث

الخطوة الثانية: تلك الكروسومات تحمل كل الصفات الورائية التي سيحملها الإنسان، ليخرج إلى الحياة إنساناً سوياً كغيره من الناس ، وقد كُتبت هذه الصفات في الكروسومات بلغة كيميائية ، ولو أردنا حصر هذه المعلومات وإفراغها على الأوراق لاحتجنا إلى دائرة معارف من ألف جزء مع انها مدونة في الأصل على خلية واحدة . هي النطفة الأمشاج، التي اتحد فيها الحيوان المنوي مع البويضة .

وهذ اللغة الكيميائية قائمة على أربع قواعد : أذنين وجوانين وثايمين وسايتوسين، وسأترك الحديث عن طريقة صياغة الكلمات طلباً للاختصار، واكتفاء بوفرة ماكُتب في ذلك.

الخطوة الثالثة: هذه القواعد التي تُكتب بها اللغة الكيميائية التي ينبني بها خلق الإنسان مركبة من جملة عناصر كيميائية أكثرها حضوراً الكربون والهيدروجين والأكسجين والنيتروجين، ونسبتها إلى نطفة الإنسان 96■ ومابقى من هذه النسبة فهو لعناصر أخرى . فمن أين تأتي هذه العناصر ؟

إنها من غذاء الإنسان الذي يصل إلى الدم من الأمعاء الدقيقة ، فينقلها الدم مباشراً إلى سائر جسد الإنسان، ومن ذلك الموضع المذكور بلفظ { بين الصلب والترائب } ومن بين الصلب والترائب تنطلق تلك العناصر لتكوين الماء الدافق لدى الرجل والمرأة .

الخطوة الرابعة : فلننظر الآن إلى دلالة { إن كل نفسٍ لما عليها حافظ } أمام مادُكِر من خلق الإنسان:

- ❖ إن أدنى خلل أو اختلاف في نسب تلك العناصر قد يترتب عليه خلل في النطفة، والذي يترتب عليه خلل في الخِلقة، أو أن تصبح النطفة ضعيفة أو غير صالحة لأن يقوم عليها بناء إنسان، وقد شاء الله ان يخلق هذا الإنسان أو ذاك خلقاً سوياً، فأسبغ عليه حفظه إذ هو جملة عناصر كيميائية تنطلق من بين الصلب والترائب لدى الرجل ولدى المرأة ،لأن الخلق سينبني على نطفتيهما { والبويضة } والبويضة لاتكون مُعدة للتلقيح إلا بعد انتقالها إلى قناة { فالوب } فكان من حفظ الله للإنسان الذي سيقوم بناؤه على نصفها قوة دافعة بانفجار الحويصلة عنها، فتندفع مباشرة إلى مدخل قناة فالوب، وقد جعل الله مدخل القناة أهداباً تتلقفها، وتقودها إلى القرار المكين.

أما الحيوان المنوي الذي سيكون الشق الثاني من ذلك الإنسان فإنه لايندفق من الرجل بمفرده، بل جملة من الحيوانات المنوية تبلغ مئات الملايين، فكيف يتسنى له من بين هذا الكم الهائل ان يكون هو صاحب قصب السبق ؟ إنه مدلول : { إن كل نفسٍ لما عليها حافظ } .

❖ وتتعدد جوانب حفظ الإنسان في طور الخلق: وصولاً إلى القرار المكين { الرحم } ثم مايتبع ذلك من أطوار الخلق: العلقة المضغة والعظام...ألخ وتفصيل ذلك تجدونه في مظانه، لأن السياقالذي نحن بصدده لايحتمل تفصيل كل ذلك، إنما تكفينا تلك الإشارة في بيان دلالة { حافظ } وربطها بالشاهد المذكور في خلق الإنسان.

السؤال الثاني: ماعلاقة تجديد خلق الإنسان في قوله تعالى { من بين الصلب والترائب } بقوله تعالى { والسماء والطارق } ؟

سمعتُ أن الدكتور عبد الفتاح طيره قد رأى أن {الطارق} يحتمل توجه دلالته إلى الحيوان المنوي، وهو رأي قد يبدو بعيداً، لبعد الشقة بين السماء وبين الحيوان المنوي، ولما تستسوجبه دلالة السماء من مناسبة المعطوف عليها لها، وهو قوله سبحانه: { النجم الثاقب } ومع ذلك فإنني أثق في رؤية العملية تأسيساً على ماقرأت له إلا أنني سأنظر إلى ماقال بما يستوعب دلالة الطارق على النجم الثاقب.

قال علماء الأحياء:

البويضة تكبر الحبوان بحوالي {8500˚} ضعفاً، فتبدو وكأنها كوكب كبير، والحيوانات المنوية من حولها كأنها كأنها الأقمار تدور في فلكها، وهذا الدوران بسبب حركة الأهداب على البويضة والموجات الناتجة عن حركة السائل الموجود في قناة فالوب فكل حيوان منوي دائر حول بويضة يطرق جدار البويضة محاولاً أن يثقبها، فلا يستطيع ، فإذا تم اختيار أحد هذه الحيوانات ليكون الشق الثاني في تكوين الإنسان الذي أراده الله ظهر نتؤ في غشاء

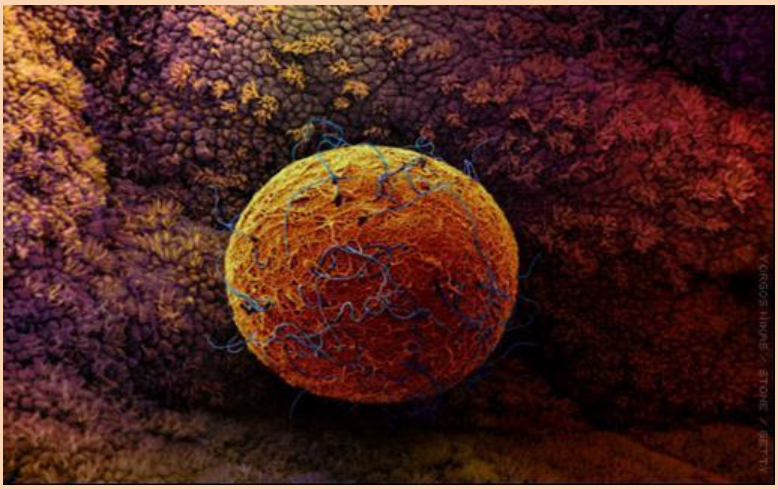

البويضة مقابل ذلك الحيوان، فيفرز من رأسه مواد مذيبة، ليحفر مدخلاً إلى البويضة فإذا دخل إليها ارتجفت البويضة لمدة دقيقة تقريباً، فتنصرف الحيوانات المنوية الأخرى بسبب الشحنة الكهربائية الصادرة عن رجفة البويضة.

فإذا أردنا بيان وجه التناسب بين هذه الحقيقة وبين { والسماء والطارق } فإن البويضة تشبه السماء والحيوان المنوي يشبه الطارق { النجم الثاقب } وذلك أن الحيوان المنوي يجول حول قبة البويضة ويضرق هذه القبة مرة تلو أخرى، فإذا تيسر له الدخول ثقب تلك ودخل في فضاء البويضة تأسيس على ذلك الدخول بناء حياة...

ويبقى لدينا الركن الثالث من ذلك التناسب بين دلالة { الطارق } وقوله تعالى{ من بين الصلب والترائب } فالحيوان المنوي الذي يطرق سطح البويضة ثم يثقبها، كان قبل ذلك جملة من العناصر الكيميائية، لم تصل بعد إلى مرحلة بناء الحيوان المنوي. وهذا الوجه يشبه ماذكرناه من قبل من شأن الكواسار ، إذ تبين للعلماء أنه يتميز بمواصفات مغايرة للمظهر العام لنجوم السماء، وهي:

- ❖ يولّد من الطاقة مايتجاوز الطاقة التي تولدها مجرة كاملة فيها مائة ألف نجم.
- ❖ تناقص لمعانها وبريقها خلال ستة أشهر، وهو مايستحيل حدوثه في أي نجم من نجوم السماء

هذه السمات التي يتميز بها الكواسار، ويختلف بها عن السمات العامة لنجوم السماء يفترض أن له دوراً مميزاً في الكون، أفترض أنه المادة الأولية لتكوين النجوم، مثلما هي العناصر الكيميائية بين الصلب والترائب المادة الأولية لتكوين الحيوان المنوي. فإذا احتاج بناء السماء إلى نسج إضافي بسبب موت بعض النجوم أو بسبب اتساع السماء المتزايد جاء المدد من ذلك الكواسار نجماً جديداً يطرق قبة السماء، ثم يخترقها ليحتل موقعه من بناء السماء ومن المعلوم أن النجم حين ولادته يكون ضوؤه ثاقباً وذلك بسبب أنه في ذروة طاقته، وهو قول العربي لأخيه قديماً: أثقب نارك ، أي : زدها وقوداً لتزداد اشتعالاً وإضاءة

وهذا النسق الذي ذكرته آنفاً نجد له مثيلاً في الكون الأصغر: الذرة فعالم الذرة عالم قائم أيضاً على فكرة المزاوجة، وهي الشحنة الموجبة في النواة والشحنة السالبة في الألكترون، وبما يحدث بينهما من تجاذب يتحقق معنى البقاء للذرة . فهل هذا فقط مايجري في عالم الذرة ؟

مازال هناك شيء آخر قابع في النواة الذرة، ألا وهو النبويترون، إلا أنه محايد، أي ليس سالباً وليس موجباً ، وماذا يفعل في الذرة ؟

ذكر الفيزيائيون ان النواة إذا تحللت يتحول أحد نيوتروناتها إلى بروتون يبقى في النواة وألكترون يتحرر على شكل أشعة بيتا. وبهذا القول يتبين لنا أن النيوترون المحايد إنما هو مدد العالم الذرة إذا حصل نقص في بروتوناتها، فيتحلل إلى تكوينين مختلفين: بروتون موجب وألكترون سالب، وذلك للحفاظ على تكوين الذرة.

وأسمح لنفسي بذكر مافي قوله تعالى لاحقاً { والسماء ذات البروج } لما فيه من موافقةٍ لما ذكرناه من شانه الكواسار وخروج الماء الدافق من بين الصلب والترائب ودخول الذرة في ذات النظام . وهو مايسري على ماترجعه السماء مما يصعد إليها من بخار الماء. فالماء مادة سلئلة، والبخار مادة غازية والغاز أقل كثافة من الماء، ولذلك ترفعه الريح إلى السماء،

وهو حالة بقائه في السماء بخاراً ليس له دور في إحياء الأرض، ومع ذلك فإن له دوراً آخر، وهو تكوين مادة الحياة، ألا هو الماء المتدفق من السماء، فتستقبله الأرض { ذات الصدع } فتنبثق فيها الحياة. فالنجار هو المادة الأولية التي يتكون منها ماء الحياة، فكيف يتم ذلك التكوين ؟

ذكر العلماء أن بخار الماء لايتكثف ليصبح ماء إلا بوجود مادة صلبة يتجمع البخار من حولها، وهذه المادة الصلبة موجودة أبداً في السماء وهي حبيبات من التراب يحتوي الجرام الواحد منه مليون مليون مليون حبيبه، ومن الحبيبات مايكون أصغر من ذلك، وهذه الحبيبات موجودة في السماء حتى في أشد حالات صفاء الجو.

إذا تتكثف القطيرة من البخار حول تلك الحبيبة، وهذه القطيرة صغيرة جداً إذ يلزم أن تتجمع ثمانية ملايين قطيرة قطرة مطر عادية. وهكذا يتم تكوين السحب المحملة بالماء، فيسوقها الله ليحي بها بلدة كانت ميتاً، أي لخلق حياة جديدة .

وهنا تتبين لنا الآفاق الدلالية لقوله سبحانه { والسماء والطارق } فالماء الذي يُخلق منه الإنسان كان قبل ذلك { بين الصلب والترائب } أي مادة أولية يتم بها تكوين شقى الإنسان خلق الإنسان: الحيوان المنوي والبويضة . وبخار الماء الصاعد إلى السماء أيضاً مادة أولية يتكون منها ماء الحياة، فإذا تدفق إلى الأرض تم خلق الحياة، مثلما كان نزول مابين الصلب والترائب إلى المبيض وإلى الخصية سبباً لخلق حياة جديدة، والنيوترون في الذرة مادة محايدة ، فإذا تحللت نواة الذرة أصبحت عرضة للانهيار، وهنا يتحول النيوترون إلى بروتون وألكترون فبحفظ على الذرة { حياتها } .

ووفقاً لكل ذلك فإن أقرب مادُكر من تأويل { النجم الثاقب } هو تلك النجوم التي تتكون من المادة الأولية { الكواسار } لتحفظ بناء السماء من الاختلال بسبب مايعرض

لبعض النجوم من موت ، وبسبب مايتولد عن اتساع السماء من اختلاف في توازن قوى التجاذب...

﴿ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ٨ ﴾ الطارق: ٨

والضمير في { رجعه } الأقرب فيه أن يكون مرجعه إلى ماجرى الحديث عنه وهو الماء الدافق الذي يخرج من بين الصلب والترائب، وهو جُلٌ مادارت عليه أقوال أهل التفسير ومن ذلك قولهم:

- ❖ رد الماء في الأحليل.
- ❖ رد الماء في الصُّلب.
- ❖ رد الإنسان ماءً كما كان ....
- ❖ واختار الطبري القول بأنه ردّ الإنسان بعد الموت.

نلاحظ أن هذه الاية والآيتين التاليتين لها يختلط فيها الضمير ما.

الإنسان، فالضمير في هذه الآية يدل على الإنسان، ولكنهما، أي الضميرين يسيران في حظ واحد، وهو ماجعل البعض يؤول الضمير في قوله { رجعه } بالإنسان مع أنه ألصق بالدلالة على ذلك الماء الذي خُلق منه الإنسان، ولذلك كان هذا التفاوت في دلالة الضمير تفاوتاً مقصوداً، أراد به المولى عز وجل القول بأن ذلك الماء هو الإنسان، وأن الإنسان هو ذلك الماء، أي أنه له هيئتان، هيئة الماء وهيئة ذلك الهيكل الممتد طولاً وعرضاً ولبيان ذلك أذكر مثالاً واحداً وهو البصمة التي يحملها كل إنسان، والتي لايتشابه فيها اثنان، قال تعالى

﴿ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ٤ ﴾ القيامة: ٤

فخص البنان بالذكر لتفرد كل إنسان ببصمة خاصة، وكل انسان، من لدن آدم عليه السلام إلى آخر مولود بولد في الأرض، يبعثه الله ببصمتة التي كان عليها في الحياة الدنيا. فإذا التفتنا إلى خبر الماء الدافق { النظفة } فإن كل الأوامر الكيميائية التي سيؤسس عليها الإنسان مُدرجة في تلك الكروسومات ومن بينها رمز البصمة . هذا الماء يرجعه الله، أي

يخلقه مرةأخرى حاملاً نفس المواصفات التي كان عليها ذلك الماء الدافق في الحياة الدنيا، ودليل ذلك قوله صلى الله عليه وسلم:

﴿ مابين النفختين أربعون ثم يُنزل الله من السماء ماءً، فتنبتون كما يبنت البقل، وليس من الإنسان شسء إلا يبلى، إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب ومنه يُركب الخلق يوم القيامة } رواه البخاري ومسلم .

ومن المؤكد أن ذلك الماء سيكون ذا مواصفات خاصة يفضي وصوله إلى كل عجب ذنب إلى { إنبات } الإنسان من جديد فها هو الماء الذي خُلق به الإنسان في الحياة الدنيا، رجعه الله أي بذات الفعالية التي كانت لذلك الماء في الحياة الدنيا.

❖ وقد أُكد مضمون هذه الآية بمؤكدين: إن واللام، والقضية التي سرى عليها ذلك التوكيد هي قدرة الله على رجع ذلك الماء، الذي هو الإنسان نفسه ولكن في لغة كيميائية، وقد استخدمت المؤكدات مراعاة لأمرين:

الأول: التكوين المذهل لذلك الماء المشتمل على رموز خلق الإنسان من رأسه إلى أخفض قدميه، وقد مر معنا أن إفراغ كل تلك المعلومات على الأوراق يحتاج إلى دائرة معارف من ألف جزء، في حين أن كل ذلك موجود في خلية واحدة لاترى بالعين المجردة. فالله عز وجل قادر على رجع ذلك التكوين بعد فنائه على أدق ماكان عليه

الثاني: التأكيد على أن ذلك الرّجع هين عليه سبحانه، وموضع الإشارة إلى أنه هين استخدام اسم الفاعل { قادر } وعدم استخدام صيغة المبالغة قدير، وقد صرّح جل شأنه بهذا المعنى في قوله:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾الروم: ٢٧

﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝٩﴾ الطارق: ٩

{ يوم } ظرف زمان ، أما الظرف الذي أُدرج فيه فقد ورد فيه رأيان فقيل هو قوله { لقادر } وقيل هو: { رجعه } والمعنى وفقاً لهذين الرأيين:

إنه على رجعه لقادر يوم تبلى السرائر

إنه لقادر على رجعه يوم تبلى السرائر

والرأي الأجدر بالاتباع أن يكون الظرف { يوم } ظرفاً لقوله { رجعه } لا لقوله: { لقادر} لأن قدرة الله تعالى ليست مقيدة بزمان بعينه، بل هو قادر على ذلك الرجع متى شاء، أما دلالة { رجعه } فكائنة في ذلك اليوم، لا في سواه.

❖ { تُبلى السرائر } □

{ تُبلى } تمتحن وتختبر هذا في الأصل ، قال تعالى:

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ الملك: ٢

وبالنظر إلى نتيجة البلاء نصل إلى دلالة الكشف، لأن الامتحان والاختبار يكشف ماكان مستوراً، وهي السرائر. قال تعالى:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ۝٣١﴾ محمد: ٣١

فالغاية من { لنبلونكم } أن يظهر مافي القلوب في قول الإنسان وعمله وهو دلالة الجهاد والصبر على مايجده المؤمن في الجهاد من بأساء.

{ السرائر } جمع سريرة، من الفعل سَرَّ، والسر هو مايخفيه الإنسان في صدره، وتبعاً لهذا الأساس أصبح لفظ السريرة لفظاً عاماً يُراد به دخلية الإنسان. فما كان الإنسان قادراً على إخفائه في الحياة الدنيا ينكشف يوم القيامة، ويُعلن على الملأ إن أراد الله عز وجل ذلك . ولأن السياق لم يحدد ذلك الإنسان من حيث الكفر أو الإيمان فإن بلو السرائر ماضٍ على

الناس جميعاً، إلا أن المشهد مع المؤمن يختلف عن مشهد الكافر، وهو قوله صلى الله عليه وسلم.....

﴿إن الله يُدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره فيقول: أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : نعم أي رب . حتى إذا قرَّره بذنوبه ورأى في نفسه أنه هلك قال: سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم، فيُعطى كتاب حسناته ، وأما الكافر والمنافقون فيقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألالعنة الله على الظالمين﴾ رواه البخاري ومسلم.

فالمؤمن يبلو الله سريرته، أي يكشف ماكان فيها بدون أن يطلع عليها أحدٌ سواه، والكافر والمنافق يُداع على الملأ كذبهما فيخزيهما.

❖ في هذه الآية تمّ الالتفات من حالة كون الإنسان { ماء دافق} إلى حالة كونة هيكلاً يسعى على قدمين { يوم تبلى السرائر } □

﴿ فَمَالَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ ﴾الطارق: ١٠

❖ هذه الآية مترتبة على كلام سابقٍ، ولذلك اقترنت بها الفاء أن الإنسان إذا تمّ { رجعه } يوم القيامة كان عليها في الحياة الدنيا، وقد استخدم حرف الجر { من } لاستغراق القوة جميعاً، وذلك أن قولك ليس معي مالٌ غير قولك: ليس معي من مال، ففي المثال الأول قد تنفي به فقط أن تكون لديك مال يجعلك ممن يقال فيهم لديه مال، مع وجود القليل الذي لايكفي لديك، أما المثال الثاني فدل على استغراق المال كله، كثيرة وقليله، وهذا ماأفادته { من } □

❖ { من قوة ولا ناصر } استغرقت هذه الكلمات كل مظاهر القوة التي كانت متيسرة للإنسان في الدنيا ، وهي القوة الذاتية والقوة الموضوعية ، أو القوة الداخلية والقوة الخارجية ، فهو في ذاته يملك قوة يدفع بها عن نفسه وإن لم تكف قوته الذاتية في ذلك

فهناك القوة الخارجية { ناصر } إذ يجد الإنسان من يعينه بقوة، من أهله أو من صاحبه أو سوى ذلك فنفى الله عن الإنسان كل ذلك { يوم تُبلى السرائر } وقد ذكر الله عز وجل ذلك في مواضع عديدة من كتابه الكريم، ومن ذلك قوله: □

﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا ۖ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾ الانفطار: ١٩

3-القسم على صدق ذلك الخبر

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ ﴾

الطارق: ١١ - ١٤

هذا القسم أجراه الله على القرآن كله، ووجه تناسب هذا المقطع مع ماسبقه أن الكلام السابق كان جملة من الحقائق الدينية التي يدعو إليها القرآن، فهي جزء من القرآن والقول فيها قول فصل، وقد التفت البيان من الجزء إلى الكل، لبيان أن هذه الحقيقة سارية على الكل ، وليس فقط على ذلك الجزء.

وقد استخدم القسم في إعلان هذه الحقيقة لأن الخطاب جاء رداً على الكافرين الذين أنكروا أن يكون القرآن وحياً من السماء.

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ ﴾ الطارق: ١١ - ١٢

يقسم جل شأنه بالسماء والأرض، وهما الثنائي الذي تستقسم به الحياة، ولوفقد أحدهما لما كانت هناك حياة للإنسان. وقد وُصف كل منهما بالصفة الفعالة فيه والتي تحقق معنى الحياة:□

□

□

{ ذات الرجع }

❖ اختار السلف الصالح القول بأنها ذات المطر، وهوقول صحيح، لأن الماء الذي يتبخر من الأرض بفعل حرارة الشمس يصعد إلى السماء، فترجعه السماء إلى الأرض غيثاً ينتفع به العباد . وهو المعنى المقصود وذلك لأمرين:□

الأول:مناسبتة للسياق العام وهو سياق الخلق المتجدد الذي بُدئ بالسماء والطارق وثُني بالماء الدافق، وهو هنا ماتُرجعه السماء من ماء يحي به الله الأرض بعد موتها.

الثاني: مقابلة دلالة كلمة { الرجع } التي أشرنا إليها فيل قليل لدلاله الصدع في الأرض، لاسماء ترجع ترجع مايصل إليها من ماء فتصدع الأرض له، وهو مثل قوله تعالى:

﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾﴾عبس: ٢٥ – ٢٦

❖ ودلالة { الرجع } على ماترجعه السماء من ماء لايمنع من اتساع دلالة الكلمة، وهو وجه من وجوه الإعجاز البياني في القرآن، ان تكون كل دلالات الكلمة مقصودة بدون أن يتعارض معنى آخر، ومن آفاق دلالة { الرجع } :□

1- أن السماء محكمة الإغلاق حول الأرض، فما إليها من تكوين الأرض لايجد فيها منفذاً يعبر منه إلى الفضاء الخارجي، قال تعالى:

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾ق: ٦

والفروج جمع فَرج، وهي الفتحة تكون في الشيء

2- فعالية { الرجع } ليست وقفاً على ماترّده السماء مما يصعد إليها من تكوين الأرض سارية على مايأتي الأرض من الفضاء الخارجي، مما قد يضر بنظام الحياة في الأرض، فالإشعاع الكوني والاشعاعات المضرة بالإنسان من شعاع الشمس تردّه السماء، وكذلك ترجع السماء مايقصد الأرض من شهب ومن نيازك فالسماء ذات رجع من جهتين.

3- { ذات الصدع }

❖ ذكرت فيما سبق أن شقي القسم شقان منسجمان، يحملان دلالة المزوجة، فابالماء الدافق من الرجل والمرأة تنبثق حياة جديدة، وبرجع السماء وبصدع في الأرض تنبثق الحياة، قال تعالى:

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾الروم: ٢٤

والصدع في الأرض يكون من جهتين من فوق ومن تحت. فنصفه الصدع الملازمة للأرض يتسرب الماء إلى باطنها، فينتفع العباد به لاحقاً، عيوناً أوآباراً، وبصفة الصدع تتمكن النبتة من شق طريقها وذلك في اتجاهين، فوق الأرض وتحت الأرض

❖ وقد ذكر الجيولوجيون أن المراد بالصدع شقوق عميقة في قيعان البحار، وهو كلام مردود، لأن انسجام وتواءم البناء الدلالي في السياق العام يستوجب أن يكون المعنى على الوجه الذي أوردته قبل قليل، وهذا لايمنع من اشتمالا دلالة الصّدع على المعنى الذي ذكره الجيولوجيون، لما ذكرناه من سمة الإعجاز البياني للكلمة في القرآن.

﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ ﴾الطارق: ١٣

هذه الآية هي جواب القسم، والقول الفصل هو القول القاطع، وقد قيل في ذلك: يفصل بين الحق والباطل، ولكن المعنى أوسع من ذلك، لأن القول الفصل هوللذي ينقطع من بعده كل قول . ولجلاء هذا المعنى نذكر له مثلاً قالته العرب، وهو: قطعت جهيزة قول أحدهما من الآخر قتيلاً، ويسألون أن يرضوا بالدية، فيبينا هم في ذلك إذ جاءت أمةٌ يقال

لها { جهيزة } فقالت: إن القاتل قد ظفر به البعض أولياء المقتول فقتله، فقلوا عند ذلك: قطعت جهيزة قول كل خطيب. اي لم يبق أمامهم مجال ليواصلوا الكلام فيما كانوا فيه.

ولكلام الله المثل الأعلى، فكل قول قد يُرد وقد يُبارى وقد يُزاد عليه، أما القرآن فقول فصل، أسكت أرباب الفصاحة والبيان عن محاولة مجاراته، قال تعالى:

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾الإسراء: ٨٨

لذلك هو قول فصل، قطع الإنس والجن عن مجاراته او محاكاته.

وبالنظر إلى أن الإنسان في الأرض لابد له من قوانين ونظم تحكم جملة أحواله، فإن تُرك ذلك إلى اجتهاد الإنسان فإنه حتماً سيكون عرضة للخطأ، وللنقصان والزيادة، أي أن اجتهاده لن يكون اجتهاداً فصلاً يبلغ حدّ الكمال الذي يمتنع من الزيادة أو التعديل. ومن هذا الوجه كان وصف القرآن بأنه فصل، إذ أن تشريعاته بلغت حدّ الكمال فيما يوافق صالح الإنسان في الدنيا والآخرة، فلا مجال معه للزيادة أو للتعديل أو للخوف

ووصف القرآن بهذه الصفة في سورة من سور القرآن المكي فيه إشارة إلى الحقيقة التي تلقاها مشركو مكة بأن الله واحد وأنهم سوف يبعثون بعد موتهم، فجاءت الآية : { إنه لقول فصل } لبيان أن هذا الخبر فصل، اي لامرد له، ولاشبهة فيه.

﴿ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ ﴾الطارق: ١٤

الهزل ضد الجدّ، وبالنظر إلى أن الهازل في القول يأتي بالأخيار والأمور على غير وجهها المعلوم والمعقول لغرض التفكه والتسلية، فإن نفي صفة الهزل عن القرآن الكريم فيه نظر إلى تلك الأخبار بها القرآن مما لم يكن للمشركين معرفة بها، هذا ماذكر من غيبيات لاسبيل إلى الاطلاع عليها، مثل أن الإنسان من بعد موته يعود حياً من جديد، ومن مثل الجنة

ومافيها من نعيم والجحيم ومافيه من عذاب والسموات السبع وأخبار القرون الأولى... سوى ذلك مما ذكره القرآن ممالم يكن للمشركين، لم به، فكل ذلك لم يكن هزلاً، أي حديثاً لاصلة له بالحقيقة، يُساق لمجرّد التفكه والتسلية.

ومن شواهد اشتمال المشركين على هذه الدلالة:

قال ابن اسحاق: وكان النضر بن الحارث من شياطين قريش، وومن كان يؤدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وينصب له العداوة، وكان قد قَدِم { الحيرة } وتعلّم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم واسفنديار، فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلساً فذكر فيه بالله وحذر قومه ماأصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله خلفه في مجلسه غذا قام، ثم قال :انا واله يامعشر قريش أحسن حديثاً، ثم يحدِّثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار، ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثاً منيً...

لقد كان النضر يظن أنه يحاكي مايرد في القرآن من أخبار لم يكن فيها حضور في واقعهم، فهم يذكرونها للتفكه والتسلية، وهو مضمون دلالة { الهزل } وبهذا المعنى نجد أن كلمة { فصل } هي الضد المقابل لكلمة { الهزل } وذلك من حيث غايات ومآلات كل منهما، لامن حيث الدلالة اللغوية، لأن الهزل خبر يساق للتفكه، فهو لاصلة له بالحق والحقيقة، فهو عرضةٌ للرد والنقد والتعديل، وأما إن كان الخبر مذكوراً في القرآن فهو خبر فصل، وهو عين الحق والحقيقة، لايسري عليه الرد ولا النقد ولاالتعديل.

ووجه المناسبة بين ذكر هذه الصفة للقرآن وبين سياق السورة ماورد فيها من مضامين غريبة، مضمون القسم ومضمون جواب القسم وأصل خلق الإنسان، ورجعه يوم تبلى السرائر، فكلها أخبار غريبة في عقول المشركين فظنوها هزلاً، فنفى الله عنها ذلك ، ووضفها بأنها { فصل }

وأجمل ماجاء في جلاء الفصل للقرآن قول رسولالله صلى الله عليه وسلم:

﴿ كتاب الله تبارك وتعالى، فيه نبأ من قبلكم، وخبر مابعدكم، وحُكم مابينكم، هو الفصل ليس بالهزل. من تركه من جبارٍ قصمه الله، ومن ابتغى الهُدى في غيره أضله الله . هو حبل الله المتين ونوره المبين والذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لاتزيغ به الأهواء، ولاتلتبس به الألسنة، ولاتتشعب معه الآراء، ولايشبع منه العلماء، ولايمّله الأتقياء، ولايخلق على كثرة الرد، ولاتنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا: إنا سمعنا قرآنا عجباً. من علم به علمه سبق. ومن قال به صدق ومن حكم به عدل، ومن عمل به أُجر ، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم﴾ رواه الترمذي

العلاقة بين ركني القسم

أقسم الله عز وجل بالسماء في كونها ذات رجع، وبالأرض حال كونها ذات الصدع، وقد بين لنا أن ذكر هاتين الصفتين تحديداً فيه أشارة إلى تحقيق معنى الحياة، وهو مايتضافر مع معنى خلق الإنسان من ماء دافق، فكان القسم بالسماء ذات الرجع والأرض ذات الصصدع موافقاً لجواب القسم، إذ أن حقيقة كون القرآن من لدن رب العالمين يجعله سبباً يكون به الإنسان حياً وبدونه يكون ميتاً قال تعالى:

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾الأنعام: ١٢٢

فالإنسان حال كفره ميت حتى وهو يتنفس، ولايتحقق له معنى الحياة إلا بالأخذ بكتاب الله.

ومثلما ينزل الماء من السماء إلى الإنسان حال كونه من طينة الأرض ليحييه، قال تعالى

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾الحشر: ٢١

كنت فيما سبق أفهم أن تصدع الجبل إنما هو سبب عظم وجلال القرآن، وهو معنى صحيح، إلا أنني في هذا الموضع أجد للكلمة معنى آخر وهو أن الجبل الصلد الأصم لايملك إلا أن يكون ذا صدع يتخلله جلال القرآن مثلما يتخلل ماء السماء الأرض بسبب ماهي عليه من صفة الصدع، وقد استخدم صلى الله عليه وسلم هذا المعنى في بيان أحوال قلوب الناس مع كتاب الله، وهو قوله

﴿ مَثَل مابعثني الله به من الهدى والعلم كَمَثَل الغيث أَصاب أرضاً، فكان منها نقية قبلة الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجارب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لاتمسك ماء ولاتنبت كلأ. فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه مابعثني الله به فَعلِم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أُرسلت به ﴾ رواه البخاري ومسلم.

4- تهديد المكذبين

﴿ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ١٧ ﴾ الطارق: ١٧

هذه الآيات تمثل اختتاماً للخطاب الذي ابْتُدئ بقوله تعالى:﴿ والسماء والطارق ﴾ ثم بعد أن بين الله للإنسان حقيقة وجوده وحقيقة القرآ، المُنزل من السماء التفت إلى عبده ورسوله المكلف بالبلاغ ليثبت فؤاده أما مايجده من تكذيب المشركين من جهة، وليهدد المشركين من جهة أخرى.

﴿ إنهم يكيدون كيداً ﴾

إنهم : أي المكذبين

يكيدون : الكيد هو اختلاف أمر أو صفة على غير وجه حقيقي لصرفت للآخرين ليلعب عن رؤية الوجه الحقيقي، فإخوة يوسف كادوه عندما دعوه ليخرج معهم ليلعب، وهم يريدون قتله أو إضاعته، وكادوا أباهم إذا أتوه بقميص عليه دم كذب ليوهموا أباهم

ان الذئب قد أكل يوسف، وغايتهم من ذلك تحقيق مراجهم في إبعاد يوسف بدون أن يقع عليهم غضب من أبيهم .

ولذلك كان كيد المشركين للقرآن ذا وجوه عديدة، من بينها ماذكرته قبل قليل من فعل النضر بن الحارث، ومن ذلك أيضاً إلصاق صفات أخرى بالقرآن لصرف الناس عن الوجه الحقيقي للقرآن وهو أنه رسالة من الله الواحد الأحد، فقالوا فيه إنه سحر وقالوا هو شعر وقالوا هو من سجع الكهان.

❖ ﴿ كيداً ﴾ مفعول مطلق للفعل { يكيدون } وفيه تكرار لمادة الفعل، وقد قيل: إن الزيادة في المبني تستدعي الزيادة في المعنى، وفي ذلك إشارة إلى حرصهم الشديد ومحاولاتهم العديدة في الكيد للقرآن ولمحمد صلى الله عليه وسلم، وهو مايمضي عليه الكافرون والمنافقون قديماً وحديثاً . وبما أن الكيد حرب خفية يجعلها الخفاء اشد من الحرب المعلنة تكفل الله عز وجل بمواجهتها، وهو قوله تعالى:

﴿ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ ﴾ الطارق: ١٦

بيّنت في الآية السابقة دلالة الكيد، وهي دلالة لاتجوز نسبتها إلى العلي العظيم، ولذلك فصل جل شأنه بين كيد المشركين وبين كيده بفاصل رقمي، إشارة إلى أن كيده له وجه آخر يليق بجلالة وكماله، وفي ذات الوقت ربط بين الكيدين برابط لغوي، وهو حرف الواو، وفي ذلك الربط إشارة إلى أن الله تعالى لايكيد للعبد إلا إذا قام ذلك العبد بالكيد للقرآن ولأهل القرآن، وهو كما قيل أهل العلم من قبيل إجازة بنفس الفعل إلا أنها مجازة ذكية { حكيمة } لأن الله عز وجل بنى حياة الإنسان في الأرض وفق ماتقتضيه حكمته ، وهو قوله سبحانه:

﴿ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤ ﴾ طه: ١٢٣ - ١٢٤

فالذي يكيد للقرآن عبىّ دفعه غباؤه ليكيد شيئاً لايُكاد، فكانت النتيجة أن مابدله من جهد في الكيد للقرآن مضى لصالح القرآن، فزاده انتشاراً وتمكنا من القلوب، وفي هذا المعنى قال الشاعر:

وإذا أراد الله نشر فضيلةٍ طويت أراح لها لسان حسود

لولا انتشار النار فيما جاورن ماكان يُعْرفُ طِيب عرف العود

فالحسود يحارب فضيله ما، ويُجرى لسانه بذمها والكيد لها، فكان كيد الله له أن جعل جريان لسانه بدمها ومعاداتها سبيلاً إلى انتشارها

هذا إلى أبواب أخرى عديدة من كيد الله، لو أردنا استقصاءها لضاق بنا هذا المقام، إنما يكفينا النظر إلى عاقبة كيد مشركي مكة للقرآن ولمحمد صلى الله عليه وسلم، نشر الله دينه وأعز رسوله وأذل المشركين ونكل بهم وفي هاتين الايتين نذير لكل من يكيد للقرآن في هذا الزمان وفي كل زمان.

﴿ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدًا ١٧ ﴾ الطارق: ١٧

من حيث اللغة كان بالإمكان أن يقال : مهل الكافرين رويداً، أو أن يُقال: أمهل الكافرين رويداً، ولكن اللع العليم الحكيم اختار تكرار مادة الفعل، فقيل في ذلك إنه للتوكيد، ولكننا نلاحظ أن الفعل لم يتكرر ذكره في صورته الأولى، إنما جاء على صورتين: فعَّل وأفعل، وهي مغايرة يجب أن تكون ذات دلالة، لأن البيان في القرآن بيان دقيق، يراعي كل حرف، بل وكل حركة، فماذا في هذه المغايرة ؟

❖ صيغة { فعّل } في اللغة تفيد المبالغة في الفعل ، فدلالة { كسّر } على التكسير أبلغ من دلالة { كَسَر } غير المضعف، ولذلك كان فعل الأمر سنجدهم يقولون إن الأمر مُوجه إلى رسول الله، فهل كان صلى الله عليه وسلم يجد ناصراً، فلقى من الأذى أشدّ مما كان يلقى في مكة، فعاد أدراجه، حتى إذا كان قريباً من مكة أتاه جبريل عليه السلام فقال،

يامحمد، هذا ملك الجبال، إن شئت أن يطبق عليهم الأخشبين فعل .

فأبى صلى الله عليه وسلم :

﴿ إني لأرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله حقاً ﴾

لقد كان ذلك العرض ابتلاء لمحمد صلى الله عليه وسلم، فكشف ذلك الابتلاء عن معدنه العظيم، الذي كان بياناً لقوله سبحانه:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾ الأنبياء: ١٠٧

أي أنه صلى الله عليه وسلم كان مجبولاً على الحلم والإمهال ولهذا فإن قوله سبحانه { فمهل الكافرين } لم يكن أمراً موجهاً إليه، إنما هو من قبيل مجيء الخبر في صورة الإنشاء، حيث أن الفرق بين الأسلوبين أن الخبر يحتمل الصدق وسواه، أما الإنشاء فلا يحتمل إلا الصدق ، لأنك إذا قلت للآخر : اقرأ درسك، وهو أسلوب أمر، فإن صياغة الحملة لامحل فيها لأن يُقال لك إنك صادق أو أنت كاذب، أما إن جاء البيان في صيغة الخبر كان تقول: سوف أقرأ درسي، فإنك تخبر خبراً ، قد تكون فيه صادقاً وقد تكون كاذباً.

والآيات التي نحن بصددها تهديد من الله للكافرين بأنه سيمهلهم مهلة قليلة قبل أن ينزل عذابه بهم، فكان بالإمكان أن يقال: سأمهل الكافرين إلا أنها ستكون جملة خبرية، فأراد المولى عز وجل أن يرفع من مستوى اليقين في ذلك الوعيد، فصاغه في أسلوبه الإنشاء { مهل...} وهو فعل أمر ز

وللبيان وجه آخر، ويُنظر فيه إلى تواصل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ربه وشكواه إلى ربه مما يلقاه من الكافرين، فطمأنة بقوله: { فمهل الكافرين } ليس من قبيل دلالة الأمر المباشر، إنما من قبيل التهديد والوعيد. ولله المثل الأعلى، فقد يأتيك ولدك يشتكي من أحدهم، إلا أنك ترى ان الأمر أصغر من أن تتدخل، فقول لولدك: اصبر عليه قليلاً، ليس أنك تريد منه التحلي بخلق الصبر، إنما هو وتعبير منك عن ترصدك له، وماصبرك عليه إلا أنك تريد له أن يصل بأذاه إلى الحد الذي يستوجب منك التدخل بقوة.

❖ ووقوف البيان عند حد قوله { فمهل الكافرين } سيجعل المهلة مهلة مفتوحة، غير مقيدة بحد معين، مع ما في صيغة { فعل } من مبالغة في الفعل فأتبعت هذه الجملة بجملة أخرى تحمل دلالة المهلة اليسيرة، فعُدل عن الفعل { مهَّل } الذي يفيد الكثرة إلى مالا يفيد الكثرة وهو { أمْهِل } ثم وصُف ذلك الإمهال بأنه قليل { رويداً } .□

فما وجه الجمع بين التعبيرين ؟

إن الزمن عند الله على غير مايظنه الإنسان، فما رأيالإنسان في دنياه زمناً طويلاً ماهو في حقيقتة إلا زمن مصير الله تعالى:

﴿ قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ١١٣ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١٤ ﴾ المؤمنون: ١١٢ – ١١٤

فاستخدم الفعل { مهل } بالنظر إلى المقاييس الزمنية في إدراك الإنسان، ثم عُدل عنه إلى الفعل { أمهل } لبيان أن ذلك الإمهال الذي يظنه الإنسان ذا زمن طويل ماهو إلا زمن قليل عند الله تعالى. وقد استخدم هذا المنسق استخداماً مباشراً في قوله تعالى:

﴿ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ١١ ﴾ المزمل: ١١

فاستخدم صيغة { فعّل } الدالة استطالة ومن الإمهال، ثم وُصف ذلك الإمهال بأنه قليل، وذلك بالنظر إلى حدّ الزمن في إدرا الإنسان وحدِّه الحقيقي في علم الله تعالى

❖ { رويداً } تصغير { رود } ولايتكلم بها إلا مصغرة، وهي من رادت الريح تزُود روداً تحركت حركة ضعيفة ، والمراد في الآية : أمهلهم إمهالاً يسيراً □

الخط البياني

وهو مخطط يضع السورة في إطار عام يبين مابين مقاطعها من ارتباط

﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ﴿٤﴾ ﴾ الطارق: ١ - ٤	القسم على حفظ الإنسان
﴿ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ﴿٦﴾ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ﴿٨﴾ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ﴿١٠﴾ ﴾ الطارق: ٥ - ١٠	الدليل على حفظ الإنسان
﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ﴿١١﴾ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ﴿١٤﴾ ﴾ الطارق: ١١ - ١٤	القسم على صدق ذلك الخبر
﴿ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ﴿١٧﴾ ﴾ الطارق: ١٥ - ١٧	تهديد المكذبين